ابن حزم في (نفح الطيب) للمقري

قال العلامة أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى بن عبدالرحمن بن أبي اليعيش بن محمد التلمساني المقَّري (1041هـ/1631م) في كتابه: (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب):

وابن حزم المذكور هو أبو محمد ابن حزم الظاهري.

قال ابن حيّان وغيره: كان ابن حزم صاحب حديث وفقه وجدل، وله كتب كثيرة في المنطق والفلسفة لم يخل فيها من غلط، وكان شافعيّ المذهب، يناضل الفقهاء عن مذهبه ثم صار ظاهريّاً، فوضع الكتب في هذا المذهب، وثبت عليه إلى أن مات، وكان له تعلّق بالأدب، وشنّع عليه الفقهاء، وطعنوا فيه، وأقصاه الملوك وأبعدوه عن وطنه، وتوفّي بالبادية عشية يوم الأحد لليلتين بقيتا من شعبان سنة ست وخمسين وأربعمائة.

وقال صاعد في تاريخه: كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة، مع توسعه في علم اللسان والبلاغة والشعر والسّير والأخبار، أخبرني ابنه الفضل أنّه اجتمع عنده بخط أبيه من تواليفه نحو أربعمائة مجلد، نقله عن تاريخ صاعد الحافظ الذهبي.

قال الذهبي: وهو العلامة أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح، الأموي، مولاهم، الفارسي الأصل، الأندلسي القرطبي الظاهري، صاحب المصنفات، وأول سماعه سنة 399، وكان إليه المنتهى في الذكاء وحدّة الذهن وسعة العلم بالكتاب والسنّة والمذاهب والملل والنّحل والعربية والآداب والمنطق والشعر، مع الصدق والديانة الحشمة والسؤدد والرياسة والثروة وكثرة الكتب.

قال الغزالي رحمه الله تعالى: وجدت في أسماء الله تعالى كتاباً لأي محمد ابن حزم يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه، انتهى باختصار.

وعلى الجملة فهو نسيج وحده، لولا ما وصف به من سوء الاعتقاد، والوقوع في السلف الذي أثار عليه الانتقاد، سامحه الله تعالى.

وذكر الذهبي أن عمره اثنتان وسبعون سنة، وهو لا ينافي قول غيره إنّه كان عمره إحدى وسبعين سنة وعشرة أشهر لأنّه ولد رحمه الله تعالى بقرطبة بالجانب الشرقي في ربض منية المغيرة قبل طلوع الشمس وبعد سلام الإمام من صلاة الصبح آخر ليلة الأربعاء آخر يوم من شهر رمضان، سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، بطالع العقرب، وتوفّي ليومين بقيا من شعبان سنة **456**، وكان كثير المواظبة على التأليف، ومن جملة تآليفه كتاب الفصل بين أهل الأهواء والنّحل وكتاب الصادع والرادع على من كفّر أهل التأويل من فرق المسلمين والرد على فرق التقليد وكتاب شرح حديث الموطإ والكلام على مسائله وكتاب الجامع في صحيح الحديث باختصار الأسانيد والاقتصار على أصحها وكتاب التلخيص والتخليص في المسائل النظريّة وفروعها التي لا نصّ عليها في الكتاب والحديث وكتاب منتقى الإجماع وبيانه من جملة ما لا يعرف فيه اختلاف وكتاب الإمامة والخلافة في سير الخلفاء ومراتبها والندب والواجب منها وكتاب كشف الالتباس ما بين أصحاب الظاهر وأصحاب القياس انتهى.

وقال ابن سعيد في حق ابن حزم، ما ملخّصه: الوزير العالم الحافظ أبو محمد علي ابن الوزير أبي عمر أحمد بن سعيد بن حزم الفارسي، وشهرته تغني عن وصفه، وتوفّي منفيّاً بقرية من بلد لبلة، ووصله من ابن عمه أبي المغيرة رسالةٌ فيها ما أوجب أن جاوبه بهذه الرسالة، وهي: سمعت وأطعت، لقوله تعالى: "وأعرض عن الجاهلين" وأسلمت وانقدت لقول نبيه عليه الصلاة والسلام: "صل من قطعك، واعف عمّن ظلمك" ورضيت بقول الحكماء: "كفاك انتصاراً ممّن تعرض لأذاك إعراضك عنه"، وأقول:

تتبّع سواي امرأً يبتغي ، سبابك إنّ هواك السّباب

فإنّي أبيت طلاب السفاه ، وصنت محلّي عمّا يعاب

وقل ما بدا لك من بعد ذا ، وأكثر فإنّ سكوتي خطاب

وأقول:

كفاني بذكر الناس لي ومآثري ، وما لك فيهم يا ابن عمّي ذاكر

عدوّي وأشياعي كثيرٌ كذاك من ، غدا وهو نفّاع المساعي وضائر

وإنّي وإن آذيتني وعققتني ، لمحتملٌ ما جاءني منك صابر

فوقّع له أبو المغيرة على ظهر رقعته: قرأت هذه الرقعة العاقّة، فحين استوعبتها أنشدتني:

نحنح زيدٌ وسعل ، لمّا رأى وقع الأسل

فأردت قطعها، وترك المراجعة عنها، فقالت لي نفسي: قد عرفت مكانها، بالله لا قطعتها إلاّ يده، فأثبتّ على ظهرها ما يكون سبباً إلى صونها، فقلت:

نعقت ولم تدر كيف الجواب ، وأخطأت حتى أتاك الصواب

وأجريت وحدك في حلبةٍ ، نأت عنك فيها الجياد العراب

وبتّ من الجهل مستنبحاً ، لغير قرىً فأتتك الذئاب

فكيف تبيّنت عقرى الظّلوم ، إذا ما انقضت بالخميس العقاب

لعمرك ما لي طباعٌ تذمّ ، ولا شيمةٌ يوم مجدٍ تعاب

أنيل المنى والظّبا سخّطٌ ، وأعطي الرضى والعوالي غضاب

وأقول:

وغاصب حقٍّ أوبقته المقادر ، يذكّرني حاميم والرمح شاجر

غدا يستعير الفخر من خيم خصمه ، ويجهل أنّ الحقّ أبلج ظاهر

ألم تتعلّم يا أخا الظّلم أنّني ، برغمك ناهٍ منذ عشرٍ وآمر

تذلّ لي الأملاك حرّ نفوسها ، وأركب ظهر النسر والنسر طائر

وأبعث في أهل الزمان شواردا ، تليّنهم وهي الصعاب النوافر

فإن أثو في أرض فإنّي سائرٌ ، وإن أنأ عن قومٍ فإنّي حاضر

وحسبك أن الأرض عندك خاتمٌ ، وأنّك في سطح السلامة عاثر

ولا لوم عندي في استراحتك التي ، تنفست عنها والخطوب فواقر

فإنّي للحلف الذي مرّ حافظٌ ، وللنزعة الأولى بحاميم ذاكر

هنيئاً لكلٍّ ما لديه فإنّنا ، عطيّة من تبلى لديه السرائر

ومن شعر أبي محمد ابن حزم يخاطب قاضي الجماعة بقرطبة عبد الرحمن بن بشر:

أنا الشمس في جوّ العلوم منيرةً ، ولكنّ عيبي أنّ مطلعي الغرب

ولو أنّني من جانب الشرق طالعٌ ، لجدّ على ما ضاع من ذكري النهب

ولي نحو آفاق العراق صبابةٌ ، ولا غرو أن يستوحش الكلف الصبّ

فإن ينزل الرحمن رحلي بينهم ، فحينئذ يبدو التأسف والكرب

فكم قائلٍ أغفلته وهو حاضرٌ ، وأطلب ما عنه تجيء به الكتب

هنالك يدري أن للعبد قصّةً ، وأن كساد العلم آفته القرب

فيا عجباً من غال عنهم تشوّقوا ، له، ودنوّ المرء من دارهم ذنب

وإنّ مكاناً ضاق عنّي لضيّقٌ ، على أنّه فيحٌ مهامهه سهب

وإنّ رجالاً ضيّعوني لضيّعٌ ، وإنّ زماناً لم أنل خصبه جدب

ومنها في الاعتذار عن مدحه لنفسه:

ولكنّ لي في يوسفٍ خير أسوةٍ ، وليس على من بالنبيّ ائتسى ذنب

يقول مقال الصّدق والحقّ إنّني ، حفيظٌ عليمٌ، ما على صادقٍ عتب

وقوله:

لا يشمتن حاسدي إن نكبةٌ عرضت ، فالدهر ليس على حالٍ بمتّرك

ذو الفضل كالتبر يلقى تحت متربةٍ ، طوراً، وطوراً يرى تاجاً على ملك

وقوله لمّا أحرق المعتضد بن عباد كتبه بإشبيلية:

دعوني من إحراق رقٍّ وكاغدٍ ، وقولوا بعلمٍ كي يرى الناس من يدري

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي ، تضمّنه القرطاس، بل هو في صدري

يسير معي حيث استقلّت ركائبي ، وينزل إن أنزل ويدفن في قبري

وقوله:

لئن أصبحت مرتحلاً بشخصي ، فقلبي عندكم أبداً مقيم

ولكن للعيان لطيف معنىً ، لذا سأل المعاينة الكليم

وقوله:

وذي عذلٍ فيمن سباني حسنه ، يطيل ملامي في الهوى ويقول

أمن أجل وجهٍ لاح لم تر غيره ، ولم تدر كيف الجسم أنت عليل

فقلت له أسرفت في اللوم فاتّئد ، فعندي ردٌّ لو أشاء طويل

ألم تر أنّي ظاهريٌّ، وأنّني ، على ما أرى حتى يقوم دليل

وهو أبو محمد علي بن أبي عمر أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن يزيد، القرطبي.

قال ابنه أبو رافع الفضل: اجتمع عندي بخط أبي من تواليفه نحو أربع مئة مجلد تشتمل على قريب من نحو ثمانين ألف ورقة، انتهى.

أبوه الوزير أبو عمر المذكور كان من وزراء المنصور بن أبي عامر، وتوفّي – كما قال ابن حيان – بذي القعدة سنة اثنتين وأربع مئة، وكان منشؤه ومولده بقرية تعرف بالزاوية.

وحكي أن الحافظ أبا محمد ابن حزم قصد أبا عامر ابن شهيد في يوم غزير المطر والوحل شديد الريح، فلقيه أبو عامر، وأعظم قصده على تلك الحال، وقال له: يا سيّدي، مثلك يقصدني في مثل هذا اليوم! فأنشده أبو محمد ابن حزم بديهاً:

فلو كانت الدنيا دوينك لجّةً ، وفي الجوّ صعقٌ دائمٌ وحريق

لسهّل ودّي فيك نحوك مسلكاً ، ولم يتعذّر لي إليك طريق

قال الحافظ ابن حزم: أنشدني الوزير أبي في بعض وصاياه لي:

إذا شئت أن تحيا غنيّاً فلا تكن ، على حالةٍ إلا رضيت بدونها

وهذا كافٍ في فضل الفرع والأصل، سامح الله الجميع.

قال ابن حزم في طوق الحمامة: إنّه مرّ يوماً هو وأبو عمر ابن عبد البر صاحب الاستيعاب بسكّة الحطابين من مدينة إشبيلية، فلقيهما شاب حسن الوجه، فقال أبو محمد: هذه صورة حسنة، فقال له أبو عمر: لم نر إلاّ الوجه، فلعلّ ما سترته الثياب ليس كذلك، فقال ابن حزم ارتجالاً:

وذي عذلٍ فيمن سباني حسنه...

الأبيات.

ولابن حزم أيضاً قوله:

لا تلمني لأنّ سبقة لحظٍ ، فات إدراكها ذوي الألباب

يسبق الكلب وثبة الليث في العد ، و يعلو النّخال في اللّباب

ولأبي بكر ابن مفوّز جزء يردّ فيه على أبي محمد ابن حزم، وفيه قال معرّضاً:

يا من تعاني أموراً لن تعانيها ، خلّ التعاني وأعط القوس باريها

تروي الأحاديث عن كلٍّ مسامحةً ، وإنّما لمعانيها معانيها

وقيل: إنّه خاطب بهما بعض أصحاب ابن حزم.